دراسات نحو

الأدبُ الخليجي

سمات أصالته وقضايا • وأعلامه

بقلم الدكتور/ على عبد الخالق على
قسم الأدب والنقد

وصلنا في العدد السابق الى الحديث عن شاعر (بنى نبهان)، (أحمد بن سعيد الستالى)، وهو من شعراء القرن الهجرى السابع بعمان • وقلنا أنه رحل لمقر ملك بنى نبهان بـ (سمدنزوى) ليقوم على مدحهم • وهم قوم كانوا على قدر من اليسار، والسلطان، حكموا عمان من منتصف القرن الهجرى السادس •

ونتابع فنضيف :

ان علاقة (بنى نبهان) بجيرانهم لم تكن - دوما - على خير ما يرام، اذ كثيرا ما وقع بينهم، وبين الفرس صراع، حتى صارت عمان نهبا لسيطرة الفرس، ومطمعا لهم، فلعل (قلهات) « لم يكونوا ليستطيعوا اظهار مذهبهم، لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن (١)، ملك هرموز، لجور النباهنة» (٢) وكانت رحلة (ابن بطوطة) لعمان قد وقعت سنة ٧٢٥ هـ في

(١) هو ابن (طوران شاه) صاحب هرموز •
(٢) أنظر : السالمى (عبد الله بن حميد) تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان ١/٣٦٢ •

زمانهم (١) ، وعكف فيها على وصف بلاد عمان ، وما رآه في تلك الرحلة ، فذكر مروره بـ (ظفار) ، وجزيرة (مصيرة) ، و (صور) وقلهات ، وطيبى من سواحل بحر العرب (٢) . ثم تحـــدث عن وصوله لنزوا قاعدة عمان آنذاك ، وأن ســـلطانها « من قبيلة الازد ، ويعرف بأبى محمد بن نبهان ، وأبو محمد عندهم ســمة لكل سلطان يلى عمان ، كمـــا هى أتابك عند (ملوك اللور) • وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هناك ، ولا حاجب له، ولا وزير ، ولا يمنع أحدا من الدخول اليه من غريب ، أو غيره ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعين له الضيافة ، ويعطيـه على قدره ، وله أخلاق حسنة » (٣) •

اذا جاش بحر الشـعر من أدبى
قذفته لؤلؤا رطبا ، ومرجانا
حتى اذا انتظمت عنـدى قلائده
جعلتها لصعاب الحاج أرسانا

شـــاعرية الســـتالى

رزق الستالى موهبة ألهمته قرض الشعر ، ودفعته اليـــه دفعا منذ الصغر ، وقد حبب اليه هذا المنحى تلمذته لعلمـــاء

---

(١) زار ابن بطوطة بلاد عمان في الرحلة الاولى (١٣٢٥ - ١٣٥٤ م) ، وقد قضي في تلك الرحلة أربعا وعشرين سنة •
أنظر ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ١٧٤ - دار الشعب - القاهرة سنة ١٩٦٦ •
(٢) والفريات ، وزكى ، وشبا ، وكلبا ، وخورفكان، وصحار
(٣) أنظر ابن بطوطه : تحفة النظار في غرائب الامصـــار ١٨٠ - ١٨١ •

(بنى خروص) ، وتأثره بشعرائهم ، فكان للمجالس الادبية ، وحلقات العلم في ذلك الوادى أثر في تكوين شاعريته ، وتحـــركه نحو الفن ، علم فيه كيف يصوغ عبارته ، ويختار ألفاظه،وينمى موهبته ، ويلهم الخيال الخصب ، والصور الجيدة،كما أن قراءته في دواوين الشعراء القدامى ، وحفظه للكثير من تعـــبيراتهم ، خاصة شعراء العصر الجاهلى ، جعله يلم بأساليبهم ، ويسلك طرائقهم ، ويتأثر بأخيلتهم ، ومشاعرهم ، ولذلك فان الستالى يتفرد - دون معاصريه - بحب محاكاةالقدماء ، وتتبعطرائقهم، في وصف مجالس الشرب ، ومدح الامراء ، والحـــكام ، وتزداد حفاوته بشعر امرىء القيس ، والاعشى ، وكثـــير ، والمتنبى ، وكانت ثقافته بالشعر العربى ، ومدارسته لفنونه ذات مغزى في تصوير حالاته ، فهو عندما يحدثنا عن مدى شغفه بمن يحب ، وسعيه للوصول اليها نجده يضرب لذلك مثالا بما كان بين (ذى الرمة) ، محبوبته (مية) ، وأن ناقته (صيدح) مع حبه لها ، واعتزازه بها تتكلف العناء ، والمشاق في الوصول الى بلال ابنأبى بردة فيقول عنها : -

سمعت النـــاس ينتجعـون غيثا
فقلت لـ (صيدح) انتجعى (بلالا)
تنـــاخى عنـــد خـــيرفتى يمـــان
اذا النكبـــاء ناوحت الشمالا (١)

فقد صور أحواله معمحبوبته بما يقرب من هذا ، أو بما يشير

---

(١) من قصيدة لذى الرمة فيمدح بلالبنأبى بردة مطلعها :
أراح فريق جيرتك الجمالا كأنهم يريدون اجتمالا
الاغانى : ١٦/١٢١ ساسي .

اليه من طرف خفى ، حتى لو افترض نفسه مكان ذى الرمة ، لما تردد في تكليف (صيدح) قصدا الى حبيبه ، اذ أن ذلك يمثل جانبا مما امتلأ قلبه بحبه فقال :

نأت المسافة بيننا ، فلو أننى
(غيلان) كلفها لـ (مية) ، صيدحا
فأكون ليلى بالدجى متلفعا
وأرى نهارا بالسموم ملوحا (١)

وكان الستالى على دراية كبيرة بالاماكن ، والديار ، مما يوحى بكثرة أسفاره ، وتنقلاته ، وظهر في شعره كثير من أسماء البلاد ، والاماكن ، وهى رحلات كابدها الشاعر في هذه الاماكن ، أو تلك ، واجتاز فيها مهامة واسعة وأماكن متباعدة بقلب قوى، وعزيمة لا تلين • والاسفار تعلم الكثير ، وتدفع لمعالى الامور ، وتشحذ الهمم ، وتوسع المدارك ، والستالى مغرم بهذه الاسفار ، محب لها ، ولطالما افتخر بقطعه المسافات ، وتجاوزه حدود المعقول على نحو قوله : ـ

طويل عريض أى فج سلكته
أمامى ، ورزق الله غاد ، ورائح
فما كل ما أغشي من الارض ضيق
ولا كل من أنقى من الناس كاشح (٢)

وما نحسب أن رحلات الستالي اقتصرت على التنقل بين الديار العمانية ، فلعله تنقل بعيدا عنها ، ولربما أخذت به الطرق الى بلاد العراق ، والزنج ، وحضرموت ، وان الاماكن التى أشار

---

(١) ديوان الستالى ١٠٨ •
المصدر السابق ص ٩٨ •

اليها في قصائده لتدلنا على كثرة تنقلاته ، وترجح معرفتهبأماكن كثيرة ومشاهداته للطبيعة فيها ، وتمليه لجمال ما شاهده ، فهو يذكر (كريت) بالعراق ، ويدعو لاهلها بالسقيا حيث يقول : ـ

منازل الحى من (ميثا) بـ (تكريت)
سقيت صوب الحيا علا ، وحييت (١)

كما أنه ذكر في أسفاره للعراق (ديرعانة) ، و (الغمر) ، لما وصف الخمر ، ومجالسها : ـ

شمسية من لعاب الكرم قـــد عتقت
بـ (ديرعانة)أو بـ (الغمر) أو (هيت) (٢)

وتجده في مثل قوله : ـ

يا حســـن أيامنا ، والدار جامعة
للاصفياء بـ (حل المرح) من (هيت)

وكل هذه أماكن وندوات شراب ، عساه أن يكون قد زارها ، أو مر بها ، أو سمع عنها ، كقوله عن (العذيب) ، و (بارق) :

---

(١) الديوان ص ٧٤ ، وميثا : الارض الدمثة ، والرابيـة الطيبة ، وجمعها ميث ، بيقول البارودى : ـ

ونسمة كشميم الخلد قد حملت
ريا الازاهير من ميث ، وأجـــزاع

وقيل ان ميث موضع بالشام ، وقد يكون مثله بالعـــراق ، وعمـــان .

(٢) الديوان ص ٧٥ ، وديرعانة من قرى الجـزيرة عـــلى الفرات ، والعانية : الخمر المنسوبة اليها ، قال زهير :

كأن ريقتها بعد الـــكرى اغتبقت
من خمر (عانة) لما يعد أن عتقـــا

و (هيت) : بلد على الفرات ، قال رؤبة :

و (الغمر) : موضـــع (والحوت في ميت رداها هيت)

الى كم تصبانى (الرباب) ، و (زينب) ؟
وحتام يبكينى (العذيب) ، و (بارق) (١)

أما أسفاره نحو (حضرموت) ، فيـــؤكدها ذكره لـ (وادى برهوت) من هذه الديار في قوله : ـ

أنضـــــاء سير ، على الانضاء تحسبهم
بين الفلا في الدجى جنان (برهوت) (٢)

كذلك ذكره لاماكن كثيرة بـ (عمان) ، ومحلاتها ما يشـــير الى صلته بهذه الاماكن ، مثل : (مستل) ، و (الســـيق) في قـــوله : ـ

ان عـزت الخمـــر من (هيت) فهات لنا
ما استل من (مستل) ، أو سيق من (سيق) (٣)

كما ذكر (الغـــوير) ، و (أكناف رامان) ، و أنزوى ، وكانت رحلات بنى نبهان تبدأ من (ذات جوس) التى يقـــول عنهـــا : ـ

---

(١) العذيب : ماء بين القادسية ، ومغشبة ، قال عنه كثير :
لعمـرى ، لئن أم الحـــكيم ترحلت
وأخلت لخيمات (العـــذيب) ظلالها
أما بارق : فموضع قرب الكوفة ، أشار اليه الاسود بن يعفر في قـــوله : ـ
أرض (الخورنق) ، و (السدير) ، و (بارق)
والقصر ذى الشرفات من (ســـــنداد)

(٢) الديوان : ١٩ ، وبرهوت : واد بحضرموت .
(٣) مستل : وادى نخل بأرض الباطنة ، وسيق : بلد بالجبل الاخضر ، وهما من أراضي عمان . وذات جوس : حى من أحيـاء نزوى ، عاصمة ملك بنى نبهان .

رحلنا الركائب من (ذات جـــوس)
تجوب الفـلاة ، وتطوى الحزونا (١)

نصلُ من ذلك الى أن شاعرية الستالى جاءت نتاج موهبـة خاصة ، تضافرت على صنعها أحداث متباينة ، وغذاها ما أحاط به من تطلعات في نشأته ، ومدارسته ، ورحلاته ، وعلاقاته ببنى من نبهان مما يمكن أن نستخلصه من شعره ٠

البواعث الدالة عـــلى مزاجه

على الرغم من وجوده في مجتمع محافظ ـ بحكم طبيعـــة نشأته ٠ وهو مجتمع يأبى الرذيلة ، ويرفض الميل للفجور ، الا أن الشاعر كان حبا ـ بحكم الغريزة المتسلطة ـ لحياة اللهو،وساعد على ذلك قربه من آل نبهان ، ومنادمته لهم،فكان ممن يجاهرون بشرب الخمر ، ومقارفتها ، أو لعله كان كذلك ، شاعرا لاهيـا في غزله ، يعشق حياة المجون ، والترف ٠ وكان حفيا بهذا ، فخـورا به ، ولم يجد أدنى حرج يمنعه من التصريح بمثل ذلك في غـالب قصائده ، ولم يلمس من مجتمعه لوما ، أو انكارا لما يجاهر به ، خاصة ، وأنه كان يعيش في حمى (بنى نبهان) في (ســـمد نزوى) حتى كانت أحاديث الخمر ، والنساءمكشوفةغيرمستورة، واضحة غير خافية ٠

ولعلّ دوافع تلك المجاهرة ـ فيا نظن ـ راجعـة الى ما كان سائدة لدى الطبقة الحاكمة من خمر ، ولذة ، وأنس ، وما نحسب أنه كان كذلك في بدء حياته بـ (وادى بنى خروص) ، و بـ (محلته

---

(١) وقال عن (أكناف رامان) : ـ
حى الاماكن من (أكناف رامان) ٠٠
الديوان : ٤١٨ ٠

ستال) ، فلقد كان هناك من يمنعه من المجـــاهرة بذلك ، ويرد قوله ، ويعنفه فيه ، ان هو تجرأ ، وجاهر بشيء منـــه ، فمبلغ علمنا أن علماء (بنى خروص) لم يكونوا ليوافقوه على نزعته، لكن الستالى جالس ملوك بنى نبهان ، وتأثر بحياتهم،واحتسي الخمر في نواديهم ، وتقرب اليهم ، وكانت، تلك بعض شـــئونه الخاصة التى يعدها أمورا عادية تنسجم مع طبيعته ، وما هيأته له ظروف مناداته لبنى نبهان ، لذلك نجد أنه كان ينكره على لائميه ويحمل عليهم لمؤاخذتهم له على مجونه : ـ

لئن لمتنى في تبـــاريح وجـــدى
فويل الشجى يوم يلقى الخليـــا
بنفسي من أهـــلُ تلك المعـــانى
حبيبـــا الى ، عـــزيزا عليـــا
ألا ربمـــا قبـــلُ يوم التنـــائى
صحبت النصيح ، وزرت الصفيا (١)

فلا يعبأ بقولُ ، ولا يهتم بنصح ناصح،ولكنه يفعلُ مايوافقُ هواء ، ويرضي شهوته ، وانه لحفى بهذا الملك ، فخور به ،لايرى فيه ما يكدر صفو الحياة ، أو ينغص ملذاته ولا يجد خيرا سواه ٠

وتتوالى الابيات على هذا النحو كاشفة عما استتر ، حتى يقـــولُ : ـ

وبتنـــا ضجيعى هوى في وداد
نشوب الحديث العتاب الشهيا
ونشفى ببرد رضـــاب الثنـــايا
اذا لذعتنا كؤوس الحميـــــا
ألا رب عيش عكفنا عليـــه
بحكم الهوى بكرة ، وعشيا

---

(١) الديوان : ٤٥٣ ٠

غدونا ، ورحنا نشاوى نعاطى
نعيما ظليلا ، وعيشا جنيـــا
ولهو المثانى ، خـــلال الامانى
نزجى بها القرقف (البابليا)
لعمرى ، لقـد كان عيشا رغيدا
وان كان منا ضـلالا ، وغيا (١)

وهذا الذى حدثنا به عن المضاجعة ، والنشوة ، واللهـــو ، والضلال يقرب مما قاله امرىء القيس في المضاجعة ، ويتصل به من طرف ، بيد أن امرىء القيس كان لاهيا بأكثر مما يكون اللهو ، ومصرحا بما في ضميره بأفضح لفظ يدل على الفجور ، واعـــلام بالامر على ما كان في نحو قوله : -

تقول ، وقد جـــردتها من ثيابها
كما رعت مكحولا من العين أتلعا
وجـــدك لو شيء أتانا رســـوله
سواك ، ولكن لم نجد لك مدفعا
فبتنا نذود الوحش عنـــا كأننـــا
قتيلان لم يعلم لنا الناس مصرعا
تجافي عن المأثور بينى ، وبينها
وتدنى على (السـابرى) المضلعا ٠
اذا أخذتها هزة الـــروع أمسكت
بمنكب مقدام على الهول أروعا (٢)

وان كان تصوير الستالى للمضاجعة جاء على أروع صورة ، اذ قد صارا (ضجيعى هوى في وداد) ، كما أنه لزم محبوبه تحت

---

(١) الديوان ٤٥٣ ٠
(٢) ديوان امرىء القيس ١١٣ ، أمـــالى المرتضي ٢/٦٢ ، حماسة ابن الشجرى ١٩٥ ، الموازنة بين الطائيين ٢/١٤٠ ٠

ما يشف عن الجلد في عناق يبثان مثوى الهوى ، وعتابه في نحو قـوله : ـ

ســـامرتها ليل التمام تبث لى
مثوى الهوى ، وعتابها ، ومزاحهـــا
ولزمتها تحت الشـــعار معـــانقا
ريا الروادف ، والعظـــام رداحها (١)

ولعلنا نظفر بشيء غير قليل في صريح العناق ، والمضاجعة عند نفر من الشعراء كان الستالى حفيا بتقليدهم ، والتـــأثر بطريقتهم ، من ذلك قول عبد الصمد بن لمعـــذل في العنـــاق ، والاختــلاط : ـ

كأننى عانقت ريحـــانة
تنفست في ليلها البـــارد
فلو ترانا في قميص الدجى
حسبتنا في جسد واحد (٢)

وقول البحترى : ـ

ولم أنس ليلتنا في العنا ق لفت الصبا بقضيب قضيبا (٣)

وقول على بن الجهم وهو جيد كقول البحترى : ـ

سقى الله ليلا ضمنا بعـد هجعـة
وأدنى فؤادا من فـؤاد معـــذب

(١) ديوان الستالى ١١٣ ، تبث لى حزنها في مثوى الهوى ، ومنزله ، وتبادلنى العتاب ، والمزاح • والشعار : ما يلبث علـى شعر البدن من الثياب • والرداح : ممتلئة الروادف •

(٢) نقلهما المرتضي في أماليه ٦٢/٢ ، وهما في حماســـة البحترى ١٩٦ ، ونسبالا بن المعتز في أمالى القالى ٢٦٦/١ ، وانظر الموازنة ١٣٩/٢ •

(٣) ديوان البحترى ١٥٠/١ •

فبتنا جميعا ، لو تراق زجاجة
من الراح فيما بيننا لم تسرب (١)

على هذا النحو مما نجده عند الستانى ، وما يتصل بمأثور القول لدى الشعراء السابقين عليه من أحاديث غزل ،ومايستتبعها من ذكر الخمر ، والتهتك ، والفجور وانه ليؤكد مجاهرته به وافتخاره ، لانه يعيش في كنف (بنى نبهان) ، وهم يبادلونه ودا بود ، وأنسا بأنس .

– وأيس ما يقال في مسلكه انه كان يحيا حياة المجنون ، والتهتك ، ويجاهر بذلك ، ويجد في أمراء بنى نبهان تشجيعا على ما يقول ، وراحة به ، وحفاوة . والشاعر يشبع رغبته ، ويروى نفسه بذلك ، اذ نراه يمد لنفسه سببا بشعراء الغزل ، والخمر ، وصحبة الليل ، والبيد ، وهو بطموحه يعد نفسه أحد الشعراء العظام ، الذين لا ينالون ما يريدون بالامانى العذاب ، ولكن مغالبة ، ومجاسرة للاحداث على نحو قوله : –

ولولا ارتشافي للتصابى حلاوة
لزمت بعصيان الهوى طاعة العذل
ولكننى أعلقت بالبيض صبوة
سلكت بها سبل المحبين من قبلى
وليس يرى القلب من ظما الهوى
سوى الكاعب الحسناء في الدل والشكل
ولا يذهب الاحزان ، أو يجلب المنى
بغير ارتشاف الراح علا على نهل

---

(١) ديوانه ٩٥ ، وحماسة ابن الشجرى ١٩٦ ،وأمالى المرتضي ٦٢/٢ ، والموازنة ١٤٠/٢ .

ولا يبلغ الحـــــاجات ، أو يدرك المنى
بلا صحبة لليل ، والبيد ، والبزل (١)

ولكن ه لمعنى ذلك أن الستالى كان مجاهرا باللذة،والمجون كل المجاهرة ، وأنه قد تجرد من كل ما يوزن به الرجال من فضل، وعفة ؟ وهل كان كل همه افراغ رغبته ، والتعبير عن نزواته ، ومجالس أنسه وشربه وحسب ؟

انه من غير الانصاف أن يتصور حال الشاعر كذلك ، فلقـد كان يمتع ببعض الامور الاخرى ، التى كانت تبدو ـ غالبا ـ في ضيقة يمن لا يحتملون سواهم ، أو لا يصدقون القول ، والعمـــل ولعل الشاعر قد مارس الدهر ، وتجشم المحن ، وتحمل الاذى فما تأثر ، ولا ضعف ،وكانت اذاية الناس له أخف وطأة من محن الايام، والا فما معنى قوله : ـ

وهل غير دهر لا يذيقك مطعمـــا
بلا كدر ، بل لا يسيغك مشربا
وما أتبـــــع الاصـــــحاب الا تعلة
ولست أرى فيهم لبيبا مهـــــذبا
فكم ذلة من صاحب لا تخـــــاله
عـلى بها من شدة الخرق مذنبـــا
فاحتمل الاذى ، وأغضي على القـذى
ومن ذا الذى ان شئت أعتبت أعتبا (٢)

ولو تعمقنا في دخيلته لوجدناه رجلا من ذلك الذى يعـــاف خسيس الامور ، ويأبى الضيم ، ويتجنب مجاراة السفهاء،الذين

---

(١) الديوان : ٣٣٤ .
(٢) الديوان : ٥٨ . والتعلة : ما يتعـلل به ، والخـــرق ـ بالضم ـ الحمق ، والجهل .

يستشعرون في أنفسهم نقيصة فيذمون أهل الفضل، أو يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وكانت نظرته للحياة ، وأحداثها تختلط بقدر من الاستغراب لما عليه حال الناس كنظرة غيره من الشعراء الذين كانوا يرون هملا من الخلق مرزوقا ، وعقلاء تكدر لهم الحياة صفو عيشهم ، حتى قل الحياء ، وغاض الوفاء على نحو قول الاخر (١) :

وكانت بقايا الفضل في الناس شـيمة
فطارت بها العنقاء شيئا مقـدرا
كان زمـان الفضـل قال لاهله
سـلام عليكم ، ثم ولى ، وأدبرا

وقد يبدو احساسه بمن حوله ، وهو يحمل فيه صدق التعبير، وخلاصة التجربة ، ما انتهى به الى أن يقول بعد طول معاناة :

كم ناقص لما أحس بنقصـه
جعل التماس الفضل ذم الفاضـل
من نال طول الفضل طال ، وقـد ترى
عما قليل سـقطة المتطـاول
ان لم تجـد لك غفلة من كاشح
فاطلب لنفسك راحـة المتغـافل
فاذا احتملت أذى الحسود أصبته
في نفسـه من علة بغـوائل
لا تطلبن غلب الشـباب ، فانه
عز اللئيم ، وشـهرة الخامل
أهـل الغبـاوة في حلاوة عيشـة
ولقلما تحلو الحيـاة لعـاقل

---

(١) من شعر أبي وسيم الازكوي العماني (خميس بن سليم)

ذهب التناصح ، والوفاء ، وانما
يرضي من الخلطـــــاء كل مجامل
فاســـتبق ود أخيك ملتمســـا له
عذرا ، ومن لك باللبيب الكامل (١)

الى غير ذلك منأمور الاعتداد بالنفس ، والطموح ، ونشدان الكمال ، مما تجلى في قوله وما صار قلاً ئدا عـلى جيـد الزمان من نحـو قـوله : -

ظن الذين قضوا بغير حقيقة
أنى نكئت ، وذاك ظن الجاهـل
هلك العماة بظنهم أن الهدى
معهم بســـوء تأول ، ودلائل
ما أنكروا من جوهر قذفت به
أمواج بحـر الحكمـة المتجملْ
فنظمت من در القريض قلائدا
فصلتها بمكارم ، وفضائل (٢)

وقد التقى عند الستالى شعر المجون مع لون آخر مخالف له تمام المخالفة ، وهو لون من الشعر فيه من التأمل ، والزهـــد ، والورع ما يدل على الجد ، والحق . ويغلب هذا اللون - بطبيعته - على شعر المراثى ، بما يطالعنا في بعض قصائده ، ففى احدى مدائحه للسلطان أبى عبد الله النبهانى يتحدث الشـــاعر عن دعوة الحق ء والاجتهاد في طلب الحقيقة الباقية على نحو قوله : -
ترى الناس أشباها ، وفي الناس فاسد
وآخـــر حر بالفراســـة ينقـــد

(١،٢) الديوان : ٣٥٥ - ٣٥٦ .

على المرء في الدين اجتهاد ، وصـــحبة
وأين من الناس الرشـــيد المودد
وقد يتقى الغيبين من لا تظنـــه
تقيا ، ويعصي ناســـك ، متزهد
نحيـد عن الباقى النفيس ، وبيننـا
منافســة فيما يزول ، وينفـــد
أقول لمغـــرور يلـــذذ نفســـه
بذم أناس ، وهـــو أردأ ، وأنكـــد
ســـيلقاه مكتوبا ، ويخزى به غدا
وأقرب شيء منك يا غافـــلا غـــد
ويا معشـــر المستبشرين بظلمنـــا
لنا ، ولـكم يوم القيـــامة مِوعـــد
فينصر مظـــلوم ، ويســـأل ظـــالم
بمهما جنى ، والصادق الوعد يشهد (١)

وفي احدى (ميميانه) تطالعنا الدعوة الدينية بما تمثله من تسبيح لله يخالط وجدان الشاعر ، حتى ينخرط في سبحات ربانية ، وتجليات يتسامى بها الى مراقى الزاهدين الواصلين ، كأنه لم يشرب الخمر ، ولم يعاقر النساء ، ولم يقل فحشا على نحـو قـوله : ـ

ملك أحد ، فرد صمد
محص للخلق بلا سأم
هو أبداه ، ويعيد ، كما
هو أوجده ، بعد العدم

الى قـــوله : ـ

---

(١) الديوان : ١٩٧ ـ ١٩٨ ٠

والمرء يقول ، ويفعـــل ما
قـــد حط ، وقدر بالقلم
من آخطأ ليم ، ومن رزق التـ
ـــوفيق أصـاب ، ولم يلم
والرزق يجاهد مطلبـــه
وينـــالُ على قدر القسم
عجبا للمرء ، وكيف يسر
وكيف يلذ بمنصرم (١)

والستالى يعد نفسه جوابا للظلمات ، قاطعـا للصحارى في وهج الشمس ، وحرارتها لا يبالى من وحش كاسر ، أو عـــدو متربص وانه ليفتخر بذلك ، ويحرص على مكابدته حرصه على مجالسته للقوم الندماء ، ودخوله خباء صاحبته ، للتمتع بها على حـد قـوله : ـ

ولقد شـهدت الشرب بين دساكر
يسقون من صافي الرحيق شرابهـا
وطرقت صاحبة الخباء ، ودونهـا
ســـمر القنا باتت تحف قبابها
ولقد أبيت الليلَ أعتسف الفـــلا
وأجوب من ظلم الدجى جلبابهـا
وأقوض الغـــر الاوابد مادحـــا
صيد الملوك ، وذاكرا أحسـابها (٢)

كما أنه لا يقبلُ الضيم ، ولا يستكين لمبارز ، فما نزلَ ساحة حرب أو مبارزة ، الا وكان فارسها ، وقائد حلبتها ، وهـو كذلك

---

(١) الديوان : ٣٨٥ ـ ٣٨٦ ٠
(٢) الديوان : ص ٥٤ ٠ الشرب جمع شارب ٠ الدسـاكر : منازل اللهو ، والغناء ٠ والاوابد : غريب اللغة ، وشاردها ٠

يصون مروءته ، ويعرض عن مجاراة السفهاء ؟٠

ومباشر بالطعن قارع صخرتي
بجبينه فوجأته بشجاج
ومبارز لي بالشباب يسل نى
منه لسان مزور سداج
لم أرضه كفؤا ، وصنت مروءتي
عن شتم كل مقارع ومهاجي(١)

أما نزعته الطائفية ، وما يمثله شعره من الحديث عن الاباضية ، فأعتقد أن لا أثر لهذه النزعة في شعره ، فكأنها معدومة ، وعلى الرغم من انتشار المذهب الاباضي في عمان ، وأن علماءه لم يقصروا في نشره والعمل على تركيزه في النفوس بالترغيب والترهيب ، وعلى الرغم من تلمذة الستالى على بنى خروص ، الا أننا لا نعثر في شعره على موقف محدد من هذه النزعة ، أو دعوة اليها ، فلم يمدح الاباضيين مشيدا بأصول مذهبهم ، كما فعل (ابن النظر) ، و (الكيزاوى) من شعراء عصره ، ولم تجيء في شعره دعوة صريحة لتلك النزعة ، ولكنه كان شاعرا متكسبا بشعره لدى (بنى نبهان) ، الذين لم تكن لهم رغبة الا في السيطرة ، والحكم ، وانتزاع الملك من أيدى الائمة الاباضيين ، وتنصيب أنفسهم حكاما على عمان ٠ ووجد الستالى في مدحهم مصدرا للمال ، وسبيلا لحياة اللهو ، والمجون ٠

ولربما كان عدم اهتمامه بالنزعة الاباضية يوافق هوى ملوك النباهنة ، الذين لم يكن يروقهم ـ بالطبع ـ هذا المسلك ، خاصة ، وأنهم انتزعوا الحكم من أيدي الائمة الاباضيين انتزاعا ، بالارث ٠

---

(١) الديوان : ص ٨٤ ٠ أراد بصخرته رأسه ٠ الشجاج الجراحة في الجبين ٠ السداج : الكذاب ٠

لكن اتجاهاته السياسية تتفق مع مشيئة بنى نبهان ، وفي خدمتهم ، فنجده يحصر همه في تمجيد دولتهم ، ومدح ملوكهم ، وأمرائهم ، وكان يعد مدحهم مفخرة له ، كما يعد ملوكهم سلالة المجد اليعربى الخالص ، ونراه يمدح ملوكهم ، ويعتد بأعمالهم في الحرب ، بما يؤكد خضوعه لآرائهم خضوعا تاما .

أغراض شعره واتجاهاته

من اليسير علينا تحديد ملامح فنه ،وأغراضه ،وموضوعاته ، حينما نتبين شخصيته الفنية ، وحينما نعلم أنه شاعر مقلد ، يستمد أصول فنه من مأثور الشعر العربى في أظهر فنونه ، وهى المديح ، بحيث اذا رصدنا قصائده فلا نجدها نخرج عن هذا الاتجاه الا في القليل النادر ، وحتى هذا القليل نجده يؤثر فيه المنهج الاتباعى للسابقين عليه . ومن دراستنا لشعره يتضح أنه ينحصر في غرضين : -

أ - المدح ، وهو فن غالب على ديوانه قد نزع اليه بطبيعة نشأته ، وثقافة عصره ، واتبع فيه أساليب من سبقه ،ومعانيهم ، وأخيلتهم ، وألفاظهم ، واشتهر به من معاصريه العمانيين (الكيزاوى) ، و (ابن النظر) ، وغيرهما .

ب - الرثاء ، وهو فن يتراءى بين ديوانه على قلة منه ، واستحياء ، وهو - كذلك - فن قديم متبع فيه أثر من سبقه

ويتصل بهذين الغرضين ألوان أخرى بدت في شعره الوصفى الذى لا يستقل غالبا بقصائد بأعيانها ، اللهم الا قصيدة يتيمة نسبت اليه تتحدث عن الخمر مطلعها : -

هات اسقنى الراح في راووقها عللا
وعاطنى في الحديث اللهو ،والغزلا(١).

---

(١) الديوان : ٣٧ .

وهى قصيدة لا تتجاوز العشرين بيتا ، لم يضمنها مدحا لاحد ـ على عادته ـ مما يجعلنا نشك في نسبتها اليه ، لانها جاءت في وصف الرياض ، والصهباء ، لا في أحد الملوك ،والامراء ، وان كانت تحمل خصائص شعره ، وسماته ، حتى ليغلب على الظن أنها رويت منقوصة ، ولم تظهر في ديوانه الا في جزئها الوصفى ، أما المدح فقد غاب عنها • وما عدا ذلك فشعره الوصفى لا يستقل بقصائد ، وان جاء متنوا في وصف الخمر حينا ، وفي وصف مجالسها ثم في وصف الرياض ، والطبيعة ، والاحداث حينا آخر • كما أن فن الغزل جاء عنده مقدمة لقصائد المدح ، لا يستقل بغرض في قصيد واحد ، ويضاف الى ذلك بعض أشعار في الحكم ، والتأمل على قلة •

أ ـ المدح : ـ

غلب فن المديح على شعره ، وكان قد اتخذه بضاعته لمزجاه وجعله أقرب وسائله ، وآكدها لنيل الحظوة لدى سلاطين (آل نبهان) • وقد كثرت مدائحه فيهم حتى كادت أن تنتظم نتاجه الشعرى كله ، فلم ينظم في مدح غيرهم سوى قصيدتين ، أما أولادهما فقد أنشدها في مدح (سبخت) ببلاد الزنج ، وهو أحد حكام هذه البلاد ، ويغلب على الظن أن له نسبا بأهل اليمن ،وقد مدحه بما يمدح به الملوك ، من جميل الشمائل ، وعظيم السجايا ، وجوده ، وفضله ، وبسطة العيش ، ومطلعها : ـ

آلا من لصب قريح الفؤاد
كثير الهموم ، قليل الرقاد (١)

وطال فيها الغزل حتى منتصفها ، ثم عدل الى المدح فقال :

---

(١) الديوان : ١٧٣ •

وخـــــير النظام كدر الـكلام
مديح الهمام (سبخت) الجواد
ضياء الرشاد ، وليث الجلاد
وغوث العباد ، وشمس البـــلاد
عـزيز الفناء ، شريف السـناء
رفيع الثناء ، طويل العمـــاد

وتمضي هذه المدحة على نحو ما رأينا ، يتكلف فيهـــا ذلك التقسيم المسجوع الذى يسير بها في تنوع لوحداتها الموسـيقية في أشكال متخالفة في تقسيم رباعى كل شطر يحمـــل تقسيمين متكافئين تساعد على اظهار الترديد والترجيع الصوتى في تكرار رتيب ، لا تلبث الاذن أن تمل نغمته ، لانه يعتمد عـلى الرنين الصوتى دون فكرة ناضجةمحبوكةمنوراء هذا التقسيمالمتكلف.

وأما الثانية فقد أنشدها في مدح (بختان) أحد أمراء بلاد الزنج كذلك مطلعها : ـ

أمط عنـك نعت الحمى ، والطلل
وجل في سبيل الصـبا ، والغزل (١)

ونلاحظ من البيت الثانى تكلف السجع في تقسيم شـــبيه بما كان عليه في السابقة . وبعد أن يتحدثعن ذكر أيام الصبا، واللهو ، يمدح (بختان) ، ويستطرد في بيان صفات الخـير ، والجود فيه :

فان خفت أمرا ، وحاذرت فقـــرا
وحاولت يسرا ف (بختـان) سـل
اذا الدهـــر عض ، فيممه ترض
ووأصـــله تحظ ، وسله تنـــل

---

(١) الديوان : ٣٤١ .

هنـــاك يعـــوم ببحـــر يـــدوم
الى كم يحوم لحســـن الوشـــل
ومن في البرية ، عنـــد الـــرزيه
أو في العطيـــة ، يوما ، وهـــل
ك (بختان) ذى الفضل،والنائل الجزل
في ســـاكن الســـهل ، أو في الجبل

وهى من التقسيم الرباعى الرتيب ما تلبث أن تبغضـــه ، وتمجـــه .

ويبدو أنه زار بلاد الزنج بشرق أفريقيا التى كانت تربطها بعمان صلات مودة ، ونسب ، حتى لقد مدح ببلاد الزنج كذلك أميرا يسمى (اسعاف بن عر) وهى تخميس طويل مطلعها :

عرج على رسم الطلل   أبلته أحقاب الطيل (١)

وفيما عدا بعض أبيات هجا فيها أحد بنى الازد (أحمـــد القصبى) (٢) ، لبخله ـ فالديوان كله في مدح (آل نبهان) ، حكام عمان الازديين . وقد اختص بأكثرها من (سلاطينهم) : ذهل بن عمر ، أبا القاسم على ، وأبا العرب يعـــرب ، وأبا عبد الله محمد ، وعلى بن عمر ، ومحمد بن عمر ، وكهلان بن عمر ، الا أن أكثرهم مدحا على الاطلاق ما جاء في حق الســـلطان ذهل بن عمر ، فقد جاوزت الثلاثين قصـــيدة . أما أبو العـــرب يعرب فقد مدحه بأكثر من سبع عشرة قصيد .

وكان الستالى حريصا على اهتبال كل مناسبة ليقول فيها شعرا ، يتوجه فيها للتهنئة لقادم من سفر ، أو شفاء من مرض ، أو ختان مولود ، أو زواج أمير ، أو تهنئة بعيد ... وغير ذلك من المناسبات التى يزول أثر القصيد بزوالها .

ومن خير ما قال (تائية) مطلعها (ألا زعموا أنى مللت ،

---

(١) الديوان : ٣٤٤ .   (٢) الديوان : ١٥٦ .

وملت) (١) ، وكان قد مدح بها (ذهل بن عمر) ، أتى فيهـــا بمقدمة غزلية جاوزت نصفها يعارض فيها (كثـــير عزة) ، وأحسن الانتقال من غرض الغزل الى المديح ، الذى أجاد فيـــه اجادة تؤكد براعته ، ومقدرته في الانتقال وحسن تخلص ، فلم تكن هناك فجوة ، أو تباعد بين الغرضين حينما قال : ـ

وكم علة في الصـــدر من حب معرض
عرضت لها بالصبر حتى اضمحلت
سوى حب (ذهل) لست عنه بذاهل
ضمائر أصـــفيها لذهل ، وقلت

ونصيب الستالى من الحسن ، والاجادة فيها أوفر حظا من غـــيرها .

والستالى يصطنع المدح وسيلة تدر عليه الكثـير ، ولم ير غضاضة من ذلك ، بل انه ليصرح بهذا في كثير من شـــعره ، ويجعله مفخرة له يسمو بها على شعراء عصره : ـ

ولعل بعض القوم ينـــكر قولنا
للشـعر في غزل ، ومدح متـــوج
فارفض بما ظن الجهـــول ، وقل له
، ان الكلام لنا رحيب المنهـــج (٢)

وتبدأ قصائد المديح بمطلع غزلى ، أو حديث عن الخمر ، أو بهما معا ، ثم يضمنها أبياتا لمشاهداته حين يعرض لمجلس الشراب في مصاحبة الطبيعة الهادئة ، ويصنع منها كلها ، أو من بعضها مقدمات لمدائحه في بنى نبهان .

وغالب قصائده جاءت متوسطة الطول ، لم يمتد فيها نفسه

---

(١) سوف نقف مع هذه التائية عند موازنتها بتائية كثير
(٢) الديوان : ٩٤ .

بعيدا ، ولم يسرف في تهذيبها ، وتنقيحها ، ولم تكن له عناية بفكرتها ، فما بين الاربعين ، والخمسين بيتا جاءت قصـــائده (لم يدر اذ نام الخلى عن الشجى) (١) ، و (صحت العواذل، والمتيم ما صحا) (٢) • والقليل منها يقع في ثلاثين بيتـــا ، كقصيدته (صدى دلالا فانى عنك بصدور) (٣) • ومما طـال فيه نفسه قصيدته في مدح معمر بن عمر (هو الصب يبكى ، والمتيم يأرق) (٤) فقد جاوزت الستين بيتا •

وأفكار الستالى في كلّ ما قال لا تخرج عن مديح آلّ نبهان ـ كما قلنا ـ جرى فيهـــا عـلى سنن الاقـــدمين ، معارضـــا لهم أحيانا ، ومتأثرا بهم أحيانا أخرى •

ومقدمة القصيدة اما مقدمة (طلليه) يتحدث فيها عن آثار الديار ، وما فعلت بها الايام ، ثم يتذكر أيام الشباب ، ويستعيد ذكريات المـاضي ، وصدى السنين ، ويطول في شكواه الى أن يدرك حقيقته حاله فيرجع الى واقعه على نحو قوله : ـ

يا للطلول ، ويالهـــا من أربـــع
مثلث لنا بين (اللوى) ، ف (الاجرع ؛
عجبا نجـــدد في عراص رســـومها
عهد الهوى ، ونجودها بالادمـــع
ونقولَ ما فعلَ الجميع ، وأينَ لى
رد الجـــواب من الخـــلاء الباقع
عهدى بها ، والدار جامعـــة لنا
زمنا ، وشعب الحى لم يتصـدع

الى أن يقـــول :

---

(١) الديوان : ٩٤ (٢) ذاته : ٩١ (٣) ١٠٧ ذاته ١٣١
(٤) ذاته : ٣٠٣ •

ثم انقضي عهد الجميـــــع ، وعهدنا
لاغـــير أنا كالهيـــــام النزع (١)

ولعله يجرى على طريقة شعراء العصور السابقة ، الـذين وقفوا بالاطلال ، وناجوها ، وأذرفوا الدمع ساخنا حولها ، وتذكرا أيام الشباب • ومع أن الشاعر مقلد الا أنه لم يستطع أن يتفرد بذاتيه تجعلَ له أثرا في ابتداع فكرة ، أو جنوح الى صورجديدة، فهو مقلد غاية التقليد ، وهو مقلد بأكثر مما ينبغى ، يشـــهد لذلك استعارته لطريقة الشـــاعر الجاهلى (لبيد بن ربيعـــة العامرى) لمـا وقف على ديار محبوبته في معلقته (عفت الديار محلها فمقامها) ، فالطلولُ صارت وكأنها وشم أعيدت داراته عند لبيد ، وهى كذلك عند الستالى وان لم يســـتطع ابداع الصورة كما هى عند لبيد ، ولبيد وقف يسأل الاطلال،ثم يستنكر على نفسه سؤالَ من لا ينطق ، ولا يحير جوابا في نحو قوله : ـ

وجلالُ السيولُ عن الطلولُ ، كأنها
زبر تجـــد متـــــونها أقـــلامها
أو رجـــع واشـــمة أسف نؤورها
كففـا تعـرض فوقهن وشـــائها

فوقفت أسألها ، وكيف سؤالنا
صما خـــوالد ما يبـــين كلامها

والستالى يصر على هذا التقليد ، الذى ربما لا تصـادفك فيه فكرة جديدة ، أو خيال مبدع ، أو لفظ مروق ، ولكنه ضرب من التقليد ، والمحاكاه لا يحمد للشاعر ، ولا يكون له به فضل ، وصورة ذلك تجدها في هذا المطلع الذى لا يزيدك احساسا بجديد، أو شيئا من الطرافة ، والجدة ، فهى أطـلالُ امرىء القيس ، ولبيد ، وبقاياها كبقايا الوشم في اليد ، وكيف تسأل ، وتجيب :

---

(١) الديوان : ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ •

لمن الديار ، كأنهـــا الوشم
لم يبق الا العهد ، والرسم
عجنابها انضـــاؤنا أصـــلا
فعرفتهـــا لايا ، وبى وهم
ظلنـــا نسـائلها متى عريت
أو هـل لها بقطينهـــا علم
بلْ كيف تنطـق دمنة درست
آياتهـا ، ومعالم طسم (١)

ويمكن أن تدرك ذلك في قصائد أخر من نحو قصـــيدته (لا تعذلانى ان بكيت رسوما) (٢) ، وقصيدته (يا دمن الحى عليك السلام) (٣) ، حيث يقول فيها : -

عجنا نحييها ، ونقضي بها
حفيظة العهد ، وحق الذمام
فاستعجم الربع ، ولما يجب
وكيف للعافي برجـــع الـكلام

ومن ذلك قصيدته (حى المنازلْ من أكناف رامانى) (٤) ٠ وأحيانا تأتى المقدمة غزلية ، تبدأ بالحديث عن محبوبته حين تنجز الوعد مرة ، وتمطله أخرى ٠ وفي هذه المقدمات يصرح الشاعر ببعض أسماء صويحباته مثل أسماء ، وعزة، والرباب، وهند ، وريا ، وزينب ، وغيرهن كقوله في عمرة :

ان الفـــؤاد لبين (عمرة) شـــفه
لذع الغرام ، بجمره المتـــأجج

---

(١) الديوان : ٣٩١ - ٣٩٢ ٠
(٢) الديوان : ٣٩٦ ٠
(٣) الديوان : ٣٩٧ ٠
(٤) الديوان : ٤١٨ ٠

وأكاد أســـلو ، ثم يبعث بوعتى
طيف لـ (عمرة) شائقى،ومهجى (١)

وهو في كلّ غزله يصف محاسن المحبوب فيما هو معترض له بأوصاف حسية تبين تبخترها ، ودلها ، وحليها ، وجمالها ؛ وأردافها ، وجيدها بمثل ما توضحه هذه الابيات : ـ

نظرت اليك بطـرف أكحـلَ أدعج
، فكأنما نظـرت بمقلة بحـــرج
وتلفتت فأرتك بـــين قـــلائد
من لؤلؤ جيد الغـــزالِ العـوهج
وكأن خوط البـــان حشـــو مروطها
تهتـــز بـــين مخلخـــلٍ ، ومدملج
وتعـــرضت بمـورد ، وتبســمت
عن واضـــح كالاقحـــوان مفلج
وتزين أثنـــاء الوشـــاح بمخطف
قلق المنطـق كالـــرداء المـدرج
تضـحى على ظهر الحشية دا بها
تكسـير جفن بالنعـــاس مشـــنج
حتى اذا نهضت بغـــير تبـــذل
ظلت تنـوء بردفهـــا المترجـرج
ومشت تثنى في المجاسد ، والحلى
بين الولائد مشية الرجلِ الرجى (٢)

فتلك فتاة جمعت كل صفات الحسن ، فطرفهـــا أدعج ،

---

(١) الديوان : ص ٨٨ ، وانظر ص ١٢٦ ، ١١٩ .
(٢) الديوان : ٨٦ ـ ٨٧ الدعج ، شدة سواد العين مع السعة ، والبحزج : الجؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية ، قالَ رؤبة : ـ
(بفاحم وحف ، وعينى بحزج)

ونظرتها نظرة جؤذر ، وقوامها كخوط البان ، وخـــدها مورد ، وثغرها مفلج كوريقات الاقحوان ، وخصرها وقيق ضامر يتحـرك فيه الوشاح ، وتضحى بطرف نعسان ، وردف مثقل مترجرج ، وتمشي بين أترابها مشية الوجى .

وفي موضع آخر يتحدث عن جمال محبوبته في حـــركتها ، والتفاتها ، ومشيتها ودلها ، وهى جياءة رواحة ، وكلها معـان قديمة ، وأوصاف تقليدية أخذها من سابقيه في مثل قوله : ـ

صادتك أسماء لحظا ، وهى آنســـة
بيضاء لينة الاطـراف حســـناء
تعرضت لك في دل ، وفي خفـــر
تخـالُ وهى أناة الخطـوِ غيـــداء
وأبرزت لك عن خد ، وســـالفة
كأنمـا التفتت في السـرب أدمـاء
ووســـوس الحلى منهـا حين تلبسه
جـــيداء براقة اللبـات ملســـاء
وتســـتقلُ بأرداف تنـــوء بهـا .
في المشي مخطفة الكشحين هيفـاء
ورقرقت لك عينى جـــؤذر فـــرق
كلتـاهما في فتور الطرف كحـــلاء
تفتر عن بارقات من عوارضـــها
معســـولة الظلم ، والتفليج لميـــاء
وأبدت القمر الوضـــاح طاف به
ليلُ معقربة الاصداغ فرعـاء (١)

ومثلُ ذلك تجده في قصيدته التى منها (سفرت فأبدت عن أسيل واضح) (٢) .

---

(١) الديوان : ص ١ ـ ٢ .
(٢) الديوان : ص ٩٢ .

وأبياته التى تضمنتها قصـــيدته (عرجا بين رســـوم المغانى) (١) ، وغير ذلك كثير من مقدماته الغزلية ٠

واذا ما انتهى الستالى من المقدمة الوصـــفية ، تأخـــذه الذكريات لايام الصبا الخوالى ، فيتذكر ليالى الوداد ، عندما كانت الايام تجود عليه ، والدهر سمح معه ، يمن عليه بالكثير من لذائذ العيش ، وأطايب الحياة ما يسعده ، ويزيده شوقا ، وكأنه ـ في ذلك ـ يستعيد شروط ذكرياته ، ويقول : ـ

شـــــكلات بعثن في كل فن
بالتـــذاذ العيون هم القلوب
من جباه غر ، ولعس شفاه
وثنـــايا مؤشرات الغـــروب
كم جنينا بهن من طيب عيش
بين لفظ الواشي ، وعين الرقيب
قـــد بلونا الزمان طفلا ، وكهلا
ومشابا بالذوق ، والتجريب (٢)

وبعض المقدمات جاءت حديثا عن (الخيال الطارق) ، وهو خيال المحبوب حينما يلم بالمناجى نحوا من نصف الليـــل ، أو ساعة بعده ٠ وليته كان يريح له نفسا ، أو يطفىء جمرة الوجد ، أو خفف عنه الهموم ، لقد كان يزوره سحرا فيثقل فؤاده بمـــا لا قبل له به ، فهو ان سرى اليه فسرى الهم عنـــــه ، وأخجله لا يلبث أن يتركه ، ويذهب في نشوة ، وزهو ، بيد أن الستالى يتعجب لمثل هذا المسلك ، اذ من ذا الذى دل (الخيال) عليه ؟ ومن ذا الذى هداه اليه ؟ ٠ لقد كان من أمر (الخيـــال الطارق) ما جعله يلعب بمشاعر الستالى ، وعواطفه ، وما جعله يصوره على هذا النحو : ـ

---

(١) الديوان : ص ٤٠٤ ٠
(٢) الديوان : ٣٣ ٠

طيف ألم به وهنا فحياه
لما حباه برؤياه ، وزياه
سرى اليه ، فسرى الهم عنه فما
أسره عند أسراه ، ومسراه
أعجب به كيف أنى غير محتشم
، ومن هداه ، وهداه ،وأهداه (١)

ومع أن الخيال الطارق ، لم يهد حائرا الى سبيل ، ولم تخفف الدموع لوعة مفارق ، ولكنه يزيد القلب وجدا على وجد على نحو قوله : ـ

وطارق كان يسلينا بزورته
يقضي ألم بنا وسنا بأبكانا
لم تهد حيران يا طيف الخيال ، ويا
ماء الصبابة ما رويت حرانا
وأنت يا عين صبرا للدموع ، فقد
جاورت قلبا الى الالاف حنانا (٢)

الا أن الستالى يجد في تطوافه به سلوا ، وراحة لا تسلمانه الى سعادة بقدر ما تشقيانه ، فهو في مشقة دائما ، فما يكاد يسلو حتى يتذكر ، ويبعث فيه طيف محبوبته أشجانا حينما يزوره في هدأة ليل طويل ، يظل يقاسم الشاعر أحزانه : ـ

وأكاد أسلو ٠٠ ثم بعث لوعتى
طيف لـ (عمرة) شائقى ، ومهيجى

---

(١) الديوان : ٤٤٥ • وزياه : الزى الهيئة • سرى الهم عنه: كشفه • وما أسره ، ما أشد سروره في مسراه ، وفي اسرائه ، وهداه : دله ، من الهداية ، وهداه ، وأهداه من الهدية • ويلاحظ هنا التكلف الشديد في تكرار بعض الصيغ كسرى ، وسرى ، وهداه ، وأهداه •

(٢) المصدر ذاته : ٣٣٧ •

طيف اذا انســـدل الظـــلام ألم بى
، بعد الهدو طروق ســـــار مدلج
ولقد أبيت محالفا ألم الجـــــوى
، والجو مشتمل بثـــوب يرندج (١)
ليل يماطلنى الصـــــباح ، وقد رأى
أرقى مـاطلة الغـــريم الملفـــج

والذى يبدو أن الستالى قد التمس صورة (الخيال الطارق) من الميراث الشعرى ، واستوحاه كما استوحى غيره ذلك ، وان حاول ابراز أفكاره ، وتجديد معانيه ، اذ طيف محبوبته يزيد ناره اشتعالا ، بينما يخفف ذلك من لوعة البحترى في مثل قوله :

طيف ألم فحيا عنـــد مشهده
قد كان يشفى المعنى من تلدده (٢)

واذا كان الخيال الطارق يخادع في رأى البحترى حتى مطلع الفجر في مثل قوله : ـ

يهدى الخيـــــال لنا ذكرى اذا طافا
وأفي يخادعنا ، والصبح قد وافا (٣)

فان الخيال عند الستالى يحض الليل على المماطلة في رد الصباح مماطلة الغريم المفلس في رد ما عليه ، فلا أمل منه ، ولا رجاء فيه . وهو لم يطرد خيال المحبوب ، ولم يعده أكثر من زائر محير للنفس ، ومهيج لمشاعر الحب ، ومثير لاحاسيس الوجد ، ولكنه ـ مع هذا ـ لم ينظر اليه نظرة (طرفة) عندما كره خيال

---

(١) ذاته : ٨٨ . اليرندج ، والارندج : جلد أسود يصنع منه الخفاف . الملفج : المفلس واللفج : الذل .
(٢) ديوان البحترى : ٣٨٩ ، ٩٨/١ دار المعارف .
(٣) ذاته : ٥٨٠ .

(الحنظلية) ، وتململ منه ، عتابا للحنظلية على الهجر في نحو قـــــوله : -

فقل لحيال (الحنظليـــــــة) ينقلب
اليها ، فانى واصل حبل ن وصل (١)

ويبدو أن (الحنظلية) كانت قد هجرت طـــرفة ، وآلمت نفست في الوقت الذى وصله غيرها ، فلم ير بدا من طرد خيالها جزاء وفاقا ٠

لكن خير ما جاء في الحديث عن الخيال الطارق للمحبـــوب ما نجده عند البحترى عندما قال : -

أمنـــك تأوب الطيف الطـــــروب
حبيب جاء يهـــــدى من حبيب
تخطى رقبـــة الواشـــين وهنـــا
وبعـــد مسـافة الخـرق المجـــوب
يـكاذبنى ، وأصـــــــدقه ودادا
، ومن كلف مصـــادقة الكذوب (٢)

فالبحترى يتساءل ان كان الطيف الطروب قد تأوب ، حتى صار وكأنه حبيب أهدى من حبيب اجتاز المخاطر ، وقطـــع المسافات وتلطف من رقابة الواشي وعلى الرغم من أن البحترى يصـــدقه الود ، ويبادله الشوق فانه بمـاطل ، ومن عجب أن يصادق الانسان من يكذبه ٠

والحق أن البحترى في تعبيره عن خيال المحبوب ، وزيارته له كان مستبشرا متفائلا ، مرحبا على الرغم من المماطلة ، منتظرا له في كل وقت ،وحال ٠ وقد أخرج لنا ذلك في صورة شخصه ،

---

(١) ديوان طرفه : ٨٨ وانظر ابن رشيق : العمدة ١٥٢/٢ ٠
(٢) ديوان البحترى : ٣٨٩ ٠

وجديرة بأن نفضلها على مثل قول جرير الذى أبى استقبال خيال المحبوب فقال : ـ

طرقتك صائدة القلوب ، وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام (١)

وتكاد تتفق مقدمات القصائد عند التالى على سنن واحدة ، ما يلبث أن يتخلص منها لموضوعه ، وفيما كانت تصوره تلك المقدمات الغزلية من عواطف انسانية راجع الى تصوير عواطفه وحسب ، والعناية بابراز أثر الفراق عليه دون الاشارة لعواطف محبوبه ، وأثر الفراق عليها ، لكنه ينتهى الى أن سلطان الشوق يترصده ، ويسيطر عليه حتى ليعتذر عن ضعفه أمام محبوبه لما يواجهه فيقول : ـ

وانى لمغلوب العزيمة في الهوى
وذو الحب أحرى أن يرق فيغلبا (٢)

وفي موقف آخر نجده يبوح بأسرار الهوى ، وطبيعته ، وسيطرته على القلوب ، واللعب بالالباب فيقول : ـ

وللشوق سلطان على الصبر والهوى
يجد بأسرار النفوس ، ويلعب (٣)

وتأتى مقدمة القصيدة على قلة مبتدئة بطلب السقيا لديار الاحبة ، ليعمها الخير ، ويؤمنها رغد العيش ، وبحبوبته ، كتلك المقدمة التى يمدح بها أبناء السلطان عمر النبهانى : ـ

تنازل الحى من (ميثا) بـ (بتكريت)
سقيت صوب الحياعلا ، وحييت (٤)

وعلى هذا النحو مطالع قصائده : (يا دار جيرتنا ، والحى حييت) (٥) ، و (سقى الغيث ريا منازل ريا) (٦) ، وقصيدته :

---

(١) ابن رشيق : العمدة ١٥٢/٢ .
(٢) الديوان : ٧٦ (٣) ١٧ (٤) ٧٨ (٥) ٧٤ (٦) ٥٥

خليلى .. مالى كلما رمت سـلوة
تعرض لى قلب الى اللهـو طامح
أفي كل يوم لى على تالد الهـوى
هوى طارق من حيث طـرفي لامح
وما شرقى الا هـوى لا يسـبغه
حبيب موات ، والزمان مسـامح
متى اسـتقى ريا ، وفي كل ورد
يقيض لى كلب على الماء نابح (١)

ومثل هنا نجده في بعض قصائد بدأها بذكر الليل ،وطوله، وملله منه (٢) . لكن أقل قصائده جودة في ابتدائها تلك التى كان يهجم فيها على موضوعه دون مقدمة ، كقوله يمدح ذهل بن عمر:

تزينت الدنيـا ، وصـار ابتهاجها
بـ (ذهل) ، و(ذهل) عينها وسراجها (٣)

ومدائح الستالى في بنى نبهان تحرص عـلى اظهـار فضائلهم ، وانهم ينتسبون لملوك اليمن الازديين،فهم المدركون لاقصي غايات المجد ، المطعمون من الكوم العبيط كلمـا هبت الرياح ، وهم حماة الدعوة الاسلامية ، وأنصارها ، وكرهم يعدل كرم حاتم الطائى ، أو لبيد العامرى على نحو قوله : ـ

آل العتيك اليمانيين الذين لهم
من سادة الازد أجـداد وآباء

---

(١) ٩٨
(٢) ٤٨
(٣) ٩٦

أقسمت ما عمر الدنيا بزينتها
الا الملوك اليمانون الاعـــزاء
المدركون من الغايات ما طلبوا
والنازلون كراما حيث ما شـاؤا
والمؤمنون بأنصار الرسـول هم
اذ قومه أهل تكذيب ، وأعـــداء
والمطعمون من الكوم العبيط اذا
هبت على الحى بالصرداء نكباء
ينوب عن مطر الوسمى جودهم
ان أقبلت سنة بالمحلّ شـــهباء
والراكبون العتاق الجرد عادية
اذا غدت غارة بالخيلّ شـــعواء
مكارم ، ومعال قائمون بها
لهم بنو عمر الصيد الاجلاء
فليزدد الازد تمجيدا بسعيهم
فانما سعيهم مجد ، وعلياء (١)

وآلّ نبهان هم النازلون لميادين القتالّ ، الحامون للامجـاد العربية وهم عند الستالى أهل المعالى ، والمكارم • وبنو نبهان من أولاد الازد بن الغوث ، وهـــو أبوحى باليمن ، ومن أولاده الانصار كلهم ، ويقال لهم أزد شنوءة ، وأزد عمان ، والسراة والعتيك فخذ منهم •

وحين يتحدث الستالى عن ذهلّ يلحقه بأهلّ المجد من أبناء يعرب ، الذين لهم مجد أصيلّ حيث يقولّ : ـ

---

(١) الديوان : ص ٣ ـ ٤ •

واذا الملوك غـــدوا لموكب سؤدد
ألفيت ذهـــلا آخـــــذا بلواء
من آل نبهـــــان الذين نعدهم
من أكـــرم السادات ، والامراء
يسمو الى شرف العتيك ، وينتمى
للازد أهـــل العز ، والقعمـــاء
عرفوا بضرب الهام ، أو طعن العدا
يوم الوغى في الغارة الشعـــواء (١)

كما يصفهم بالحلم ، وكرم المسعى ، وحسن الوجـــوه ، والـكرم ، والبـأس ، وكل ما من شـــأنه الارتفـــاع بهم الى معالى المجد ، كالصدع بالحجة والمنطق السليم ، ورجاحة العقل على نحو قوله : ـ

حلمـــاء النهى ، كرام المســـاعى
وحسان الوجوه بيض الجيـــوب
فهم المفعمـــون ســـود المقـــارى
وهم المطعمون عـــام الجـــدوب
واذا اســـــتمطروا غيوث الايادى
واذا استنصروا ليوث الحـــروب
صـــبر في اللقاء ، غلب شـــداد
بين مرد مجـــــربين ، وشـــيب
ركبـوا الخيـــل مقـربات عتـــاقا
تتبارى في الشد ، والتقـــريب (٢)

---

(١) الديوان : ص ١٠ ٠
(٢) الديوان : ص ٣٤ ٠

وفي مدح السلطان محمد بن عمر النبهانى يقول عنه : ـ

واذا الخصـــوم تدافعوا بجدالهم
أدلى بحجتـــــه ، ولم يتلجلج
واذا تعـــرض للنـــزال رأيتـــه
بين الكتـائب كالهزير المخـــرج
يغشي الوغى بين الاســـنة والظبى
كالشهب تلمع في الخميس المرهج (٢)

على هذا النحو يمضي الستالى في مدائحه لبنى نبهـــان فيجد لهم المكارم التى ترد للازديين في نضرة الدعوة الاسـلامية ما يؤكد حبه لهم ، فبنو نبهان أزديون من نسل قحطان ، يفتخرون على من سواهم ، ويسمون عليهم بما لم ينازعهم فيه أحـد ، فهم أنصار النبى ، تفقهوا في دين الله ، وهللوا بنور شـهابه على نحو قوله في مدح أبى المعالى يعرب : ـ

والى (العتيك) (أبو المعالى) ينتمى
والى زرا (قحطان) من أســـــباه ـ
واذا تفاخـــــرت الملوك ، فانه
يعلو ، ويسمو في عزيز نصـــابه
بـ (الازد) أنصار (النبى) تفقهـــوا
في دينه ، وهدوا بنور شـــهابه
بذلوا له أموالهـــم ، ونفـــوسهم
حتى اســـتقر الحق في أربابه (١)

ويقول عنهم مادحا : ـ

---

(١) الديوان : ص ٩٠ .

اذا تفاضلت الاحســـــاب خلتهـــم
أتقى جيـــوبا ، وأذيالا ، وأردانا
النـــاصرون رســـــول الله بينهم
والشـــائدون له بالعز بنيـــــانا
اذا قضي الله فضل (الازد) أبدله
من (آل يثرب) أنصارا ، وجيرانا (١)

ولا تأخذنا دهشة لموقفه من (آل نبهـان) ، ولا عجب أن يقتصر ديوانه على مدحهم ، فهو مثلهم (أزدى) عمانى ، له مكانة في (بنى خروص) وهم أولياء نعمه ، وأصحاب الفضـــل عليه ، وعلى غيره من الشعراء • وهو حريص على حفظ الود ، والجميل ، لانه عاش في كنفهم أجمـــل أيامه ، يتقلب في ألوان النعيم ، ويحوطه منهم العطف ، وهم ملوك أعزاء •

••• وللحـديث بقيـة

د• على عبد الخالق على
قسم الادب والنقد

---

(١) الديوان : ٤١٣ •